ميخائيل دوكاس مؤرخا للعلاقات البيزنطية العثمانية زمن الإمبراطور حنا الثامن باليولوجوس (١٤٢٥-١٤٤٨م)

أ.د/ ياسر مصطفى عبد الوهاب[١]

الباحثة: أمينة محمد حمزة

مستخلص:

كانت للعلاقات البيزنطية العثمانية مكانة هامة في كتابات مؤرخي العصور الوسطي ، تلك العلاقة التي جمعت بين الإمبراطورية البيزنطية التي ظلت قائمة ما يزيد عن عشرة قرون من الزمان، شغلت فترة العصور الوسطي بأكملها، وقد حكمتها طوال العشرة قرون العديد من الأسر وانتهت بأسرة باليولوجوس Palagous والتي ظلت علي العرش حتي عام ١٤٥٣م، ودولة نشأت في الربع الأول من القرن الرابع عشر الميلادي وهي الدولة العثمانية والتي توسعت علي حساب الإمبراطورية البيزنطية ، وأصبحت مع مرور الوقت إمبراطورية مؤثرة في تاريخ البشرية، ويُعد المؤرخ ميخائيل دوكاس Michael Doukas من أهم المؤرخين البيزنطيين الذين سردوا العديد من المعلومات عن تلك العلاقة من خلال مؤلفه انحدار وسقوط بيزنطة في أيدي الأتراك العثمانيين Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks؛ لذلك كان الاتجاه إلي اختيار موضوع الدراسة، وهو بعنوان ميخائيل دوكاس مؤرخا للعلاقات البيزنطية العثمانية زمن الإمبراطور حنا الثامن باليولوجوس (١٤٢٥- ١٤٤٨م) ، في تلك الفترة الزمنية التي سبقت السقوط النهائي على يد العثمانيين عام ١٤٥٣م.

Summary:

The Ottoman Byzantine relations had an important place in the writings of the historians of the Middle Ages, the relationship between the Byzantine Empire, which had existed for more than ten centuries, occupied the entire period of the Middle Ages,

[١] عضو مجلس إتحاد المؤرخين العرب ووكيل الدراسات العليا والبحوث –كلية الآداب – جامعة كفر الشيخ.

and had been ruled by many families for ten centuries and has ended with a family of Palagous which remained on the throne until 1453, and The Ottoman It originated in the first quarter of the 14th century, which expanded at the expense of the Byzantine Empire, and over time became an influential empire in human history.

The Historian Michael Doukas considered one of the most important Byzantine historians who gave many information about that relationship through his book "Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks" so the tendency was to choose the subject of the study to be "Michael Doukas as a Historian of Ottoman Byzantine Relations in the time of the byzantine emperor John VIII Palaeologus (1425- 1448) In that period of time before the final fall by the Ottomans in 1453.

الكلمات الرئيسية

ميخائيل دوكاس - الإمبراطورية البيزنطية- الدولة العثمانية – حنا الثامن.

ظلت الإمبراطورية البيزنطية قائمة ما يزيد عن عشرة قرون من الزمان، شغلت فترة العصور الوسطي بأكملها، وقد حكمتها طوال العشرة قرون العديد من الأسر وانتهت بأسرة باليولوجوس Palagous والتي ظلت علي العرش حتي عام ١٤٥٣م، وكان لظهور الأتراك العثمانيين وتوسعهم علي حساب الإمبراطورية البيزنطية في الربع الأول من القرن الرابع عشر، سببًا في أن أصبحت العلاقات البيزنطية العثمانية لها مكانة هامة في كتابات مؤرخي العصور الوسطي ويُعد المؤرخ ميخائيل دوكاس Michael Doukas من أهم المؤرخين البيزنطيين الذين سردوا العديد من المعلومات عن تلك العلاقة من خلال مؤلفه انحدار وسقوط بيزنطة في أيدي الأتراك العثمانيين[١] Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks؛ لذلك كان الاتجاه إلي اختيار موضوع الدراسة، وهو بعنوان ميخائيل دوكاس مؤرخا للعلاقات البيزنطية العثمانية زمن الإمبراطور حنا

(١) Doukas,M.,Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks,Tr. From"Historia Tuco-Byzantion", by Harry J. Magoulias, Wayne state University, 1975

الثامن باليولوجوس (١٤٢٥-١٤٤٨م) ، تلك الفترة الزمنية التي سبقت السقوط النهائي على يد العثمانيين عام ١٤٥٣م.

ولد ميخائيل دوكاس في آسيا الصغرى عام ١٤٠٠م، وهو يوناني لم يعرف اسمه الحقيقي، ولكن طبقا للعادات البيزنطية فقد أخذ اسم جده ميخائيل دوكاس، وكان جده من أنصار الإمبراطور حنا كانتاكوزنيوس John Cantacuzenus VI (١٣٤١-١٣٥٥م) وسجن أثناء الحرب الأهلية، وعندما هاجم السجناء الدوق الكبير ألكسيوس أبوكافكوسAlexis Apokavokos للقسطنطينية تم إعدام جميع السجناء ماعدا ستة منهم كان من بينهم الجد دوكاس الذي فر هاربا إلى إفسوس Ephesus متنكراً في زي راهب وبقي في حماية وعطف الأمير التركي عيسي بك أمير أيدين Aydin، وفي عام ١٤٢١م انتقل دوكاس للعيش في فوكايا الجديدة Nea Phakaia، وعمل سكرتيرا في خدمة البودستا الجنوي جيوفاني ادورنو Giovanni Adorno، ورحل دوكاس إلي ليسبوس الأكثر ثَراءً وانضم إلي خدمة أسرة جاتيلوزيو Gattilusio، وفي عام ١٤٥٢م كان في مدينة ديموتيقية وشاهد مقتل ربان الأسطول البندقي وباقي بحارته على أيدي السلطان محمد الثاني، وفي أغسطس ١٤٥٥م وصل إلي أدريانوبل لتسليم الجزية للسلطان محمد الثاني نيابة عن حاكم ليسبوس، وعندما أرسل السلطان محمد الثاني أسطوله إلي جزيرة ليسبوس في سبتمبر سنة ١٤٦٢م كان دوكاس قد وقع في الأسر، وقيل أنه مات عندما اجتاحت القوات العثمانية مدينة ميتيلين Mytilene . [١]

تكمن أهميه كتاب دوكاس في رصده للعلاقات البيزنطية العثمانية لعدة عقود قبيل الفتح العثماني للقسطنطينية، فانفرد بالعديد من الفصول داخل كتابه للحديث عن الأحوال العثمانية الداخلية حتى حصار القسطنطينية [٢]، وفضلا عن ذلك فقد استسقي دوكاس معلوماته من شهود عيان من الطرفين العثماني والبيزنطي من رواية راهب يحكى سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ م، وبالإضافة إلى سيدة بيزنطية من أصل نبيل، كان قد أسرها العثمانيون، كما تحدث مع بعض الجنود الأتراك بنفسه الذين اشتركوا مع القوات العثمانية في

[١] ج. ر. جونز: الفتح العثماني للقسطنطينية (٨٥٧هـ-١٤٥٣م) سبعة مصادر معاصرة، دراسة وترجمة وتعليق حاتم عبد الرحمن الطحاوي، دارعين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة،٢٠٢١م، ص٩٠.

[٢] جونز: الفتح العثماني للقسطنطينية، ص٩٠.

الاستيلاء على المدينة فقال " قابلت بعد الحرب أتراك من الذين استولوا على القسطنطينية، الذين أخبروني ..... " [١].

على أي حال، إن معرفة دوكاس باللغات اليونانية والإيطالية لخدمته في البلاط الجنوي وكذلك العثمانية لاحتكاكه بالأتراك السلاجقة في إفسوس التي مكنته من كتابة الأحداث بشكل جيد، ومن مصادرها الأصلية أيا كان لغتها، وقد ألف دوكاس هذا الكتاب محددا تاريخا دقيقا للفترة الواقعة ما بين ١٣٤١ –١٤٦٢ م في خمسة وأربعين فصلا بناءً على رغبه أحد الرهبان مستعرضا العلاقات الخارجية للإمبراطورية البيزنطية مع العثمانيين [٢]

فيما يلي من صفحات سوف نتحدث عن العلاقات البيزنطية العثمانية في عهد الإمبراطور حنا الثامن John VIII Paleologos من خلال كتابات المؤرخ ميخائيل دوكاس، والتي بدأت مع توليه عرش القسطنطينية في عام ١٤٢٥ عقب وفاة والده الإمبراطور مانويل الثاني الذي عانى من شلل نصفي [٣] وحسبما يذكر المؤرخ ميخائيل دوكاس Michael Doukas كانت الإمبراطورية البيزنطية قد فقدت الكثير من أراضيها ، وقد نتج عن ذلك ضعف في كافة نواحي الحياة، ترتب عليه نتائج في كافة المجالات حتى شلت مرافق الدولة، فلم تعُد الإمبراطورية قادرة على الصمود أمام هجمات العثمانيين، مما اضطر إلى خضوع الإمبراطور حنا الثامن للسلطان العثماني، وعقد معاهدة سلام دائم معه من خلالها وافق على تسليم المدن والبلدان على طول شواطئ البحر الأسود، كما وعد بدفع جزية سنوية عبارة عن ثلاثمائة ألف قطعة نقدية فضية [٤] .

---

(١) Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,P.29 .

(٢) محمد زايد عبد الله :مصادر تاريخ العصور الوسطي التاريخ البيزنطي، ط١، القاهرة، ٢٠١٥م، ص٧٣.

(٣) كان الإمبراطور مانويل الثاني قد أصبح راهبا في دير بانتوكرانور في القسطنطينية تحت أسم ماثيو وتوفي هناك في ٢١يوليو ١٤٢٥م، بعمر الخامسة والسبعين ودفن هناك ويسجل التاريخ انه بعد مرور عشر سنوات على وفاة الإمبراطور مانويل أي عام ١٤٣٥م قام أبنه ثيودور الثاني باليولوجوس حاكم ميستيرا بتزين القبر بمسلة ذهبية كلف ثيودور أيضا قصتين قصيرين من تأليف العالم الشهير بيساريوس ليتم نقشها علي مجموعة من المنسوجات التي ربما كانت مخصصة للقبر. لمزيد من التفاصيل انظر:
Melvani,N.,*The Tombs of the Palaiologan Emperors*,B.M.G.S.,Vol.42,Tom.2,Istanbul, 2018,P.248.

(٤) Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,PP.164-169.
انظر أيضًا: محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٠م، ص ٣٦٤.
يشير دوكاس إلى أن الإمبراطور حنا الثامن تزوج من آنا ابنة فاسيلي الأول أمير موسكو الكبير في عام ١٤١٤م، وتوفيت بالطاعون ١٤١٧م. لمزيد من التفاصيل انظر:

ويذكر ميخائيل دوكاس أنه في العام الأول من حكم الإمبراطور حنا الثامن ومع اشتداد الهجمات العثمانية سقطت مدينة مودون الواقعة في شبه جزيرة المورة عام ١٤٢٥م، وكان أندرونيقوس الأبن الثالث للإمبراطور مانويل الثاني وحاكم سالونيك، يعاني من حصار السلطان مراد الثاني للمدينة، فقد انزعج أهلها من الاعتداءات اليومية للأتراك، و عانوا من الجوع بسبب الافتقار إلى المؤن والطعام، بجانب شعورهم باليأس من تقديم أي مساعدة على الإطلاق فكانت القسطنطينية تعاني من مصائبها، فأرسل حاكم سالونيك يطلب المساعدة من البنادقة ، يعرض عليهم تسليم المدينة مقابل الدفاع عن المدينة وتوفير المؤن بها، ووعدوا بأنهم سوف يكونوا مخلصين كأنهم وُلدوا وتربوا في البندقية، وقد قبلت البندقية هذا العرض بكل سرور، وبعد ذلك انتقل دوق البندقية مع سرب من عشرة فصائل وتم إجراء تنصيب أندرونيقوس بعد الإشادة بالدوق الجديد.(١)

أثار هذا الفعل من قبل السكان وحاكم سالونيك غضب السلطان مراد الثاني واعتبره تحدياً له، لأن البنادقة كانوا من ألد أعدائه، فأعد مراد جيشاً لفتح سالونيك وحاصرها، وقد أدى ذلك إلى تفاقم الوضع بالنسبة للبندقية، فأرسلت البندقية سفراء إلى مراد لطلب السلام، ولكنه لم يقم بإعطاء الرد، ولكنه أشار فقط بيده قائلا "هذه المدينة هي ملك أبوي لي من جدي بايزيد، انتزعها من الرومان، لو كان الرومان سلموها لي، لكان لديهم سبب ليصيحوا "إنه ظالم"، لكن نظراً لأنك لاتيني من إيطاليا، فلماذا تخطيت إلى هذا الإجراء؟ لديك خيار الانسحاب إذا لم تفعل! فستأتي بعد ذلك"، وهو ما ذكره المؤرخ ميخائيل دوكاس Michael Doukas وفشلت المباحثات مع السلطان مراد، وواصل حصار سالونيك وقام الأسطول العثماني بعمليات تدمير في الأرخبيل ضد ممتلكات البندقية، وبخاصة في أوبيية، ما شل مناورات الأسطول البندقي قبالة غاليبولي.(٢)

Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,P.288.No.119.

(١) Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,PP.169-170.

(٢) Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,P.171.

انظر أيضا: نيقولا فاتان: صعود العثمانيين ١٣٦٢-١٤٥١م، ترجمة بشير السباعي، جـ١، طـ١، دار الفكر للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣م ، جـ١، ص ٩٦.

ظلت مدينة سالونيك محاصرة بحريا من قبل العثمانيين لمدة طويلة، منذ أن تحول العثمانيون لمحاربة البنادقة بعد أن رفعوا الحصار عن القسطنطينية عام ١٤٢٤م،وقد شكلت هذه الحرب هجمات متواصلة علي المراكز البحرية في بحر ايجة فضلا عن إستهداف السفن التجارية، وهو ما أدي في النهاية إلي إجبار المدينة علي الاستسلام بسبب تخريب تجارتها، وفي هذه الفترة

في ذلك الوقت حدث ما خفف الضغط على سالونيك، وهو نشوب نزاع بين العثمانيين والمجريين حول صربيا والأفلاق Iflak [١]، وهو ما أعطى البنادقة الفرصة لإعادة تحصين المدينة، وقد أعاد مراد الوضع في الأفلاق لصالحه، وأرسل سفارة إلى صربيا حيث حاكمها جورج برانكوفيتشGeorge Brankovic [٢]، الذي قابل السفراء العثمانيين ومنحهم الأوسمة التي تتناسب مع رتبهم، وعرض ابنته للزواج من مراد مع الجزء الأكبر من صربيا، وافترض أنه المهر، بجانب عدد من العملات الذهبية والفضية المقدمة له، واعتبر هذا بمثابة ميثاق سلام مختوم بأداء القسم المقدس [٣]، وبالفعل نجد السلطان مراد قد استجاب لعرض ملك صربيا فيذكر المؤرخ ميخائيل دوكاس أنه أرسل أحد وزرائه ويدعى ساروجا [٤]، لخطبة البكر له ويؤدي القسم على جورج ويتلقى تعهده الرسمي وقابل ساروجا جورج، واختتم احتفالات الخطوبة، وجاءت العروس من صربيا برفقة الوزير ساروجا، حيث جاءت معها الكثير من الكنوز والملابس المطرزة بالذهب، وكان يرافقها شقيقاها، وبمجرد وصولهم، تم الاحتفال بالزواج بفرح عظيم، وبهذه الزيجة ضم مراد ما كان قد فتحه إلى أملاكه متذرعًا بحق الإرث، ومنازعاً لجورج برانكوفيتش

فرضت البندقية سيطرتها علي المدينة، يبدو أن سياسية الميل إلي العثمانيين قد تمت بشكل كبير داخلها، وانتشرت بين الكثير من قطاعات مجتمعها، من بينها الطبقات الدنيا، وقد ذكر دوكاس أن سلطات البندقية في المدينة ضبطت أعداد كبيرة من الأرستقراطيين الذين اشتبه في تعاونهم مع العثمانيين، فقامت بترحيلهم إلى نجربونت وكريت والبندقية، بينما كان الهجوم العثماني على المدينة في عام ١٤٢٥م –١٤٢٦م، قام العديد من السكان بما في ذلك أشخاص جري تعينهم لحراسة جدران المدينة بالفرار إلى الجانب العثماني. انظر:

Necipoglu,N.,*Byzantium Between the Ottoman and the Latins*, Cambridge, 2009,PP.49-50.

[١] الإفلاق أو الفلاج هي منطقة تاريخية في رومانيا حاليا تقع شمال نهر الدانوب وجنوب سلسلة جبال الكارابات، وتعرف أيضا فالاشيا Valachie(ولاشيا)، وكان أول من أطلق عليها التسمية هم الشعوب الجرمانية ويقصد بها السكان اللاتين ثم استخدم التسمية السلافيون والبيزنطيون ولاحقا العثمانيون ليدلوا بها علي الرومان البلقانيين ورومان شمال الدانوب، ظلت تتنقل من يد إلي أخرى حتي شكلت اتحادها في ملدافيا سنة ١٨٥٩م . انظر: موستراس: المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ترجمة وتعليق عصام محمد الشحادات، ط١، دار بن الحزم للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،٢٠٠٢م ، ص٧٨.

[٢] جورج برانكوفتش George Brankovic: هو الحاكم المطلق لصربيا منذ عام ١٤٢٧م شارك في معركة أنقرة ١٤٠٢م مع العثمانيين ضد تيمورلنك، كفصل vassal في الجيش العثماني وبعد هزيمة العثمانيين عاد إلي صربيا عن طريق القسطنطينية. وقام باستغلال الضعف العثماني بعد معركة أنقرة لبناء إمارة مستقلة. انظر: O. D. B.,Vo1. 2, PP.835-836.

[٣] Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Othoman Turks*, P. 175.

وأيضا: محمد سهيل طقوش: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ط ٣، دار النفائس، بيروت ٢٠١٣م، ص ٨٩.

[٤] ساروجا: أحد أهم وزراء السلطان العثماني مراد الثاني(١٤٢١-١٤٥١م) واستمر فيما بعد في خدمة السلطان محمد الفاتح بن مراد الثاني، وكان السلطان مراد قد أرسله في عام ١٤٥٠م لإحضار عروس محمد الفاتح (ست خاتون). انظر:

Doukas, M, *Decline and fall of Byzantium to the Ottoman Turks,* P.208.

الذي أدعى وراثه الحكم.[١]

كان التوسع العثماني في بلاد الصرب قد أزعج الملك المجري سجسموند Sigismond (١٤١٠ـ ١٤٣٧م)[٢] ، فعزم على التصدي لهم ووقف تقدمهم، فاتجه ناحية صربيا واحتل مدينة بلغراد، فرد مراد على ذلك بالاستيلاء على الاجا حصار وجولوباتس، واتخذ من الأولى قاعدة انطلاق وحماية له، وأما اشتداد الضغط على القوات المجرية، اضطر سيجسموند من عقد هدنة مع السلطان مراد عام ١٤٢٨م، مدتها ثلاث سنوات.[٣]

عاد مراد مرة أخرى إلى سالونيك بعد أن قام بتأمين الجبهة الصربية المجرية، فيذكر المؤرخ ميخائيل دوكاس أنه مع حلول فصل الربيع انطلق السلطان مراد من أدريانوبل إلى سيريس، بعد أن جمع قواته الغربية هناك وكتب إلى حمزة بك قائد القوات الشرقية للانضمام إلى القوات، وقاموا بشن هجمات يومية ضدها، فقد فاق عدد القوات العثمانية عدد القوات داخل المدينة بعد زيادة السلالم ومحركات الحصار وآلات الحرب بأعداد كبيرة، أبلغ حمزة السلطان مراد بالمجيء حتى يتمكنوا من بدء هجومهم النهائي.[٤]

كان المدافعون عن المدينة في انتظار وصول مساعدات من البندقية ولكن لم يصل شيء، ووصل مراد وأجرى استعداداته النهائية للهجوم على المدينة، فاستدعى قواته عن طريق نداء البوق، وخاطب أهل المدينة كما

---

(١) Doukas, M., *Decline and Fall of Byzantium to the Othoman Turks*, PP.175-176.

انظر أيضا: نيقولا فاتان: صعود العثمانيين، جـ١، ص ٩٦- ٩٧.

(٢) سجسموند تم اختياره ملكاً على هنغاريا في عام١٣٨٧م، وكان أحد المشاركين بقواته في معركة نيكوبوليس عام ١٣٩٦م، وفي عام ١٤١١م أختاره ناخبو الإمبراطورية ليصبح إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وقد واجهته مشكلات عديدة؛ خاصة عندما ورث عرش بوهيميا ومشكلاتها بالإضافة إلى تورطه في صراعات جماعة فرسان التيوتون في بولندا، ودخوله في صراع مرير مع فريدريك هوهنزولرن Frederick of Hohenzollen أحد أقوى الأمراء الألمان، مما جعل سجسموند في صراعات ومشاكل عديدة حتى توفى عام١٤٣٧م ، انظر:

ياسر مصطفى عبد الوهاب: مشروع إيمانويل بيلوتى لاستعادة الأراضي المقدسة في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، بحث منشور بمجلة كلية الآداب – العدد الأول –جامعة كفر الشيخ عام ٢٠٠٩م، ص ١٧٣، هامش (٨٤).

(٣) إسماعيل سرهنك: تاريخ الدولة العثمانية، مراجعة حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت،١٩٨٨م، ص ٣٧.

(٤) Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Othoman Turks*,P.171;CF.also: Shaw,S., *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey,*Vol.I,Cambridge,1979, P.49.

ذكر المؤرخ ميخائيل دوكاس " لو أنا أعطيكم كل شيء في هذه المدينة رجال ونساء وأطفال، فضة، ذهب، فقط اتركوا المدينة" ثم عندما بدأ صوت الأبواق في الهجوم ماذا كان سيفعله خمسمائة أو ألف أو ألفان رجل في هذه المدينة الكبيرة!" كان هناك بالكاد رامي قوس واحد يغطي عشرة أبراج حسب رواية دوكاس، وسرعان ما صعد الأتراك على الفور داخل المدينة، وجعلوا بوابة واحدة مفتوحة وهرع الجيش بأكمله في الداخل مثل سرب من النحل وسقطت المدينة في عام ١٤٣٠م، بعد ثلاثة أيام من الهجوم المتواصل، وتم ربط الرجال والنساء والشباب والبنات والمراهقين والرضع معاً بالسلاسل وسحبهم الفرسان، وتم تخريب المنازل وتدمير المعابد، وهربت الحامية البندقية منها، وحتي تحافظ البندقية على ما تبقى منها من ثغورها البحرية في اليونان وألبانيا؛ عقدت معاهدة صلح مع السلطان مراد الثاني واعترفت بموجبها بسيطرة العثمانيين على سالونيك وبحرية التجار مع جزر الأرخبيل[١]، ويعلق المؤرخ العثماني بن عاشق باشا على هجرات الأتراك المسلمين إلي سالونيك، "وبذلك تحولت سالونيك من دار كفر إلى دار سلام".[٢]

تغيرت السياسة العثمانية إلى أكثر هجومية في البلقان، وذلك بعد فتح سالونيك عام ١٤٣٠م، حيث أدرك العثمانيون أن الأراضي جنوب الدانوب لا يمكن أن يأمنوا عليها إلا إذا حكموها بشكل مباشر، ولذلك كان عليهم أن يرفضوا مطالب المجر فيما يتعلق بصربيا، ومطالب البندقية فيما يتعلق بألبانيا والمورة، فنجد أنه بعد انتهاء الهدنة مع المجر عام ١٤٣١ م، طالب سفير الملك سيجسموند السلطان العثماني أن يوافق على مد نفوذ المجر إلى البوسنة وصربيا وبلغاريا الدانوبية فكانت الدويلات البلقانية المحصورة بين القوتين المجرية والعثمانية تصارع في البقاء، وهنا لاحظ العثمانيون ازدياد النفوذ المجري في صربيا و والاشيا فقرروا عام ١٤٣٤م، انتهاج سياسة أكثر هجومية، وقد ساعدهم في ذلك هدف الملك المجري سيجسموند ١٤٣٧ م.[٣]

مع مرور الوقت استغل أمير الأفلاق فلاد الأول دراكول انشغال مراد في الأناضول، وقام بالتجاوز على

---

(١) Doukas,M.,Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks,PP.171-172

انظر أيضا: يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، جـ١، طـ١، مؤسسة فيصل، إستانبول، ١٩٨٨م، ص ١٢٢.

(٢) Asikpasaoglu., *Asikpasaoglu Tarihi*',Hazirlayan,H. Nihal Atsiz,Ankara,1985.",P.113.

(٣) خليل إينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد الأرناؤوط، بنغازي، ٢٠٠٢م ، ص ٣٥.

الأراضي العثمانية، فأصدر مراد أوامره لأمير الحدود فيروز بك وكلفه بالهجوم على الأفلاق، وتشديد الضغط على طول الحدود، فيذكر المؤرخ ميخائيل دوكاس Michael Doukas أنه عندما رأى دراكول نجاح حملة مراد في الأناضول ذهب إلى بورصة لمقابلة مراد هناك أعلن طاعته له، ووعد مراد أنه كلما احتاج العبور إلى المجر سوف يمكنه من ذلك، وعلاوة على ذلك فهو شخصياً سيكون مرشده حتى حدود ألمانيا وروسيا، وقد سر مراد بهذا الالتزام، ودعا دراكول لتناول الطعام والشراب على طاولته، وأغدق مراد عليه هو وأصحابه بالعديد من الهدايا والذي كان عددهم أكثر من ثلاثمائة.(١)

بسبب الظروف السياسية في ذلك الوقت قرر السلطان مراد الثاني التوسع ناحية الشمال، فقاد حملة عام ١٤٣٨م ضد تراتسلفانيا والمجر، وقد سانده في ذلك جورج برانكوفيتش الصربي، والأمير فلاد الأول دراكول أمير الأفلاق، فتصدت له القوات المجرية بقيادة يوحنا هونيادي John Hunyaadi(٢) أمير تراسلفانيا، لكن مراد الثاني استطاع التغلب عليه، وفتح كوتشيفو، الواقعة إلى الجنوب الشرقي من مدينة بلغراد، وأجبره على توقيع معاهدة تقضي بالتخلي عن الأراضي الواقعة على الشاطئ الأيمن لنهر الدانوب، بحيث يكون هذا النهر فاصلاً طبيعياً بين أملاك الدولة العثمانية والمجر. (٣)

كنا ذكرنا من قبل أن الأمير الصربي جورج برانكوفيتش قد تنازل للسلطان مراد عن العديد من أراضي صربيا، بالإضافة إلى دفع جزية، وارتباطه معه بمشروع مصاهرة، وجراء ذلك ظل جورج يتحين الفرصة للتخلص من التبعية العثمانية، وبالفعل نقض الهدنة عام ١٤٣٩م وثار في وجه مراد مستغلاً انشغال الأخير بإخضاع ثورة الكرمانيين في الأناضول، مما دفع السلطان إلى التوجه إلى بلاد الصرب والمجر، ففتح مدينة سمندريا الواقعة

(١) Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,P.174.

(٢) يوحنا هونيادي John Hunyaadi(١٤٠٧-١٤٥٦م): قائد عسكري مجري، من أصل والاشي، عينه لاديسلاس ملك المجر وبولونيا حاكما" على إقليم ترانسلفانيا، قام بحملات عسكرية ناجحة ضد الأتراك العثمانيين (١٤٤٢-١٤٤٣م) واستعاد منهم مدينتي نيش Nis، صوفيا Sophia اشترك في حملة فارنا Varna الصليبية ١٤٤٤م، وهزم فيها، عقد هدنة مع السلطان محمد الفاتح في عام ١٤٥١م، مدتها ثلاث سنوات، طلب الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الحادي عشر مساعدته لنجدة القسطنطينية، لكنه اشترط حصول المجر على ميسمبريا Mesembria التي حصل عليها بالفعل عام١٤٥٣م، مات عام ١٤٥٦م، إثر جراح أصابته أثناء الدفاع عن مدينة بلجراد. انظر: جونز: الفتح العثماني للقسطنطينية، ص١٥٩ هامش (١).

(٣) محمد سهيل طقوش: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ص ٩١.

بالقرب من مدينة بلغراد، وفر برانكوفيتش إلى بلاد المجر. [١]

كان مراد قد استطاع أن يخضع ملك البوسنه ، الذي وافق على دفع الجزية للعثمانيين، وكان قد حدث أن توفى ملك المجر عام ١٤٣٩م، مما أدى إلى ضعف المجر، فاستغل مراد هذا الظرف وهاجم مدينة بلغراد، ويسرد لنا ميخائيل دوكاس أن مراد عندما وصل إلى بلغراد نصب خيامه حولها، وشرع في بناء المنجنيق من مختلف الأحجام ورمي التلال الترابية، كما قام بتركيب سرب من أكثر من مائة مركب ثلاثي للتنقل في النهر، ولكنه بعد حصار دام لمدة ستة أشهر، لم يستطع أن يحقق شيئاً على الأرض أو النهر، وبدلاً من ذلك تعرض لخسائر فادحة في الجيش، فرفع الحصار عنها، وأغار على بلاد تراستلفانيا وحاصر مدينة هرمنشناد Hermastadt [٢] التابعة للمجر، وتمكن أحد قادته وهو شهاب الدين باشا حاكم الروملي، من فتح إقليم نوفو بردو Novo Brdo[٣] ذات الأهمية الاقتصادية الفائقة.[٤]

نظر الإمبراطور البيزنطي حنا الثامن بقلق في ازدياد نفوذ السلطان مراد الثاني، حيث شعر بالخطر يقترب من العاصمة القسطنطينية، وذلك بعد أن استطاع السلطان مراد من الانتصار على الصرب والبلغار والمجر في عدة مواقف، فشجعه ذلك على طلب المساعدة من الغرب الأوروبي لمواجهة الازدياد العثماني، فقد آلمهُ سقوط سالونيك وأفزعه تخاصم الجنويين والبنادقة في هذا الوقت الحرج، لذلك توجه إلى البابا والغرب الأوربي لطلب

---

(١) Shaw,S.,*History of the Othoman Empire*,Vol.I,P.49.

(٢) هرمنشناد Hermastadt: هو الاسم الألماني لمدينة سيبيو Sibiu الرومانية الحالية الواقعة على مسافة ٢٧٥كم إلى الشمال الغربي من العاصمة (بوخارست) أطلق عليها الترانسلفانيون "هرمشتات" Harmeschtat، وكانت مركز إقليم ترانسلفانيا وأهم مدنه. انظر: إدوارد شيفرد كريسي: تاريخ الأتراك العثمانيين، ص١٠٥.

(٣) تقع نوفو بردو بالقرب من كوسوفو كانت تعرف قديما باسم نوفوس مونس، وعرفت في العصور الوسطي كونها قلعة قوية وضخمة بنيت على بركان خامد سقطت في يد العثمانيين بعد حصار قوي عام ١٤٤١م، وما لبثت أن عادت إلي الصرب بموجب اتفاقية مع الصرب ١٤٤٣م، ولكنها سقطت في النهاية في يد العثمانيين بعد حصار قاسي أستمر أربعين يوما في ١يونيو١٤٥٥م. للمزيد من التفاصيل انظر:

Gasinski,T.,*Balkan Exports Through Dubrovnik1358-1500:*A Geographical Analysis,J.C.S., Vols.9-10,1968,PP.133-159.

(٤) Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,P.178.

انظر أيضا: نيقولا فاتان: صعود العثمانيين، جـ١، ص ١٠١.

المساعدة ضد التقدم العثماني وإنقاذ القسطنطينية [١]، يشير المؤرخ العثماني المجهول إلى الدور الذي لعبه الإمبراطور البيزنطي حنا الثامن، الذي استنجد بالبابا ودعاه إلى مساندته قائلا: "من أجل إخراج بن عثمان من ممالكنا، وأن نجعل مساجدهم ومدارسهم خمارات وأماكن للأوثان، وأن نهدم المآذن التي قاموا ببنائها، ونقيم الكنائس بدلا منها ؛ لأن الأتراك إذا ظلوا في أماكنهم سوف يقضي بذلك على طائفة النصارى؛ لأنه ليس من المعقول أن تنطفئ شعلة دين سيدنا عيسي في عهدك أيها البابا". [٢]

يذكر لنا المؤرخ ميخائيل دوكاس أن الإمبراطور حنا الثامن أبحر إلى إيطاليا عام ١٤٣٧ م للدعوة لعقد المجمع الكنسي وهي الفكرة التي حذره منها والده الإمبراطور مانويل الثاني، وأخذ معه البطريرك جوزيف وأساقفة الكنيسة وبعض المسئولين الإمبراطوريين، فكانت مسألة الاتحاد في باله منذ فترة طويلة، ولذلك أرسل السفراء إلى روما للقاء مقدماً مع البابا يوجين الرابع Eugene IV (١٤٣١ – ١٤٤٧م)[٣]، الذي وعد بتحمل نفقات الرحلة بالإضافة إلى التزويد بالمؤن خلال فترة إقامتهم في إيطاليا، لجميع المسئولين الملكيين والمسئولين عن الكنيسة وكذلك الإمبراطور والبطريرك، وعندما وصلت المراكب البابوية من إيطاليا مع الأموال اللازمة لسداد نفقاتهم، أبحروا من القسطنطينية إلى البندقية التي استقبلتهم بحرارة، فقد استقبلوا الإمبراطور بحفاوة، وعومل البطريرك والأساقفة بنفس الطريقة، حيث سُمِح لهم باستخدام الكنيسة حيث احتفلوا بالتضحية غير الدموية، وتجمع أهالي المدينة لرؤية وسماع القداس الإلهي المقدس الذي يحتفل به كتقليد للكنيسة الشرقية، وعندما شاهدوا ذلك بكوا، من أعماق أرواحهم وصرخوا، "يا رب احفظ كنيستك موحدة في مأمن من سهام الشر اجمع شملها وأزل الخلافات التي تفرق بيننا، لم نر أبدًا الإغريق ولا طقوسهم، لم نسمع منهم إلا عن طريق شائعات بعيدة واعتبرناهم برابرة،

---

(١) Brehier,L., *Life and Death of Byzantium, trans. Margaret Vaughan, (New York, 1977)*,P.489.

(٢) Anonim., *Gazavat Sultan Murad b. Mehammed Han Izladi Ve Varna Savaslari (1443-1444)*, Hazirlayan, Inalcik, H.and Oguz, M, Ankara,1989.,PP.2-3.

(٣) يوجين الرابعEugene IV : هو جبرائيل كوندلومارو Gabriel Candul Maro، ولد في البندقية لأسرة من أثرياء التجار، كان أحد أقارب البابا جريجوري الثاني عشر Gregory XII (١٤٠٦-١٤١٥ م)، ترقى في المناصب الدينية حتى أصبح كاردينال عام ١٤٠٨ م، حاز كوندلومارو على ثقة البابا مارتن الخامس Martin V (١٤١٧-١٤٣١م)، حتى تولى الكرسي البابوي بعد وفاته تحت اسم يوجين الرابع Eugenius ليظل في المنصب حتى توفي في ٢٣ فبراير ١٤٧٧ م انظر:
Kelly,J.,*Oxford Dictionary of Popes,* Oxford,1996, P.242

والآن نعلم ونثق بأنهم أولاد الكنيسة المولدين، وأن روح الله هو الذي يتحدث فيهم".[١]

غادر الوفد من فينسيا براً إلى فيرارا في أوائل عام ١٤٣٨م، وأثناء تواجدهم هناك، ضرب المدينة طاعون مميت على أثره انتقل الوفد إلى فلورنسا، وأعيد فتح باب للمناقشات هناك وأعلن في السادس من يوليو الاتحاد باللغتين اليونانية واللاتينية بعد إبداء الإمبراطور موافقة شعبه والكنيسة اليونانية على الاتحاد، وسط رفض المطران ماركوس مطران أفسوس، أقيمت صلاة شُكر ترأسها الباب يوجين الرابع، وذلك أملاً في الحصول على قروض ومساعدات عسكرية من الغرب الأوروبي لبيزنطة، تنقذها من السقوط المتوقع[٢]

ويرى أحد المؤرخين أنه السبب وراء معارضة الحزب الوطني الأرثوذكسي في بيزنطة فكرة الاتحاد الكنسي، هو ليس فقط الخوف من فقدان نقاء الأرثوذكسية اليونانية، ولكن أيضاً خوفهم من المساعدات الغربية التي حصلوا عليها مقابل الاتحاد ستؤدي إلى التفوق السياسي للغرب على الشرق، ولم يكن كل اليونانيين على استعداد للاعتراف بهذه العقائد وكان الإمبراطور يوحنا الثامن على وشك مغادرة فلورنسا، وقد توفى البطريرك جوزيف

---

(١) Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,P. 179.

كلما زادت الضغوط العثمانية على بيزنطة، كلما نشطت لديهم فكرة اتحاد الكنيستين للحصول على دعم الغرب الأوربي، وكان هذه المرة مجمع فيرارا برعاية البابا يوجين الرابعEugene IV (١٤٣١-١٤٤٧م) الذي عقد أولا في فيرارا ثم انتقل بعد ذلك إلى فلورنسا مع مطلع ١٤٣٩م بسبب الظروف المالية، وقد ناقش هذا المجمع أربعة محاور، الأول استخدام الخبز بدون خميرة في تقديم قربان المسيح، الثاني طبيعة المطهر، الثالث سيادة البابا، الرابع انبثاق الروح القدس الوحيد أو المزدوج. وفي نهاية المجمع قام البابا بإعلان مرسوم اتحاد الكنستين الشرقية والغربية، وتم التوقيع عليه باللغتين اليونانية واللاتينية، كما تعهد بجانب تحمل نفقات عودة الوفد البيزنطي لوطنه، أن يقوم بأعداد سفينتين وثلاثمائة جندي للدفاع عن القسطنطينية، وأن يستمر في دعمها كلما دعت الحاجة إلى ذلك، والضغط على أمراء أوروبا بمساعدة بيزنطة. انظر: إدوارد جيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة د. محمد سليم سالم، مراجعة على أبودرة، جـ٣، دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٩م ، جـ٣، ص٣١٥-٣١٩؛ السيد محمد متولي: الدولة البيزنطية في عالم القرن الخامس عشر، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة المنصورة، ١٩٩٨م، ص١١٠-١١٥.

(٢) Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,P.179;CF.also: Ostrograskey, G, *History of the Byzantine State* ,New York,1957., Tom. II, PP. 499 - 500.

نظرا للضغط العثماني على القسطنطينية وجديه الأمر، اضطر الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثامن باليولوجوس إلى الاستنجاد بالكنيسة البابوية، واضطر البيزنطيون إلى إطاعة طلبات البابوية، وقرر البطريرك البيزنطي جوزيف الثاني (١٤١٦-١٤٣٩م)Joseph II الذي كان على رأس الوفد البيزنطي مع الإمبراطور الموافقة على ما طلبته الكنيسة الكاثوليكية من أجل إنقاذ القسطنطينية. انظر: السيد محمد متولي: الدولة البيزنطية في عالم القرن الخامس عشر، ص١٠٣-١٠٨.

الذي كان معارضاً للاتحاد في فلورنسا قبل إصداره رسمياً، ولما كان أمير موسكو فاسيلي الثاني، يميل بشكل كبير إلى الاتحاد، فقد عملت موسكو بنشاط واضح لصالح الاتحاد الذي تم في حضور الإمبراطور البيزنطي في السادس من يوليو ١٤٣٩م على الرغم من رفض بعض اليونانيين التوقيع على المرسوم .(١)

أما عن موقف أهالي القسطنطينية، فكانت هناك معارضة شديدة لهذا الاتحاد فظهرت تلك المعارضة الشديدة من قبل بطريرك كنيسة القسطنطينية، كما لقت أيضا معارضة القائد العسكري الأعلى لوكاس نوتاراس Lucas Notaras (٢)، فكانت له عبارة شهيرة وهي "أننا نفضل أن نرى عمائم الأتراك في شوارع القسطنطينية، على أن نرى قلنسوات رجال الدين اللاتيني" (٣)، ويعلق المؤرخ ميخائيل دوكاس Michael Doukasعلى رد فعل القسطنطينيون واستقبالهم للقيادات الكهنوتية واستفسروا، عما هي الأخبار التي أحضرتموها لنا من الغرب؟ هل حققنا الانتصار؟ فأجابوا" لقد تمت خيانة إيماننا، وبدلنا التقوى بعدم التقوى، ونبذنا التضحية الخالصة وأصبحنا عثاً مغمورا "، وغضب الشعب غضباً شديداً جراء هذا الاتحاد، فضلاً عن استغلال البابوية والغرب الأوروبي الموقف العسكري البيزنطي الحرج أمام العثمانيين وفرض الاتحاد عليهم وأصبح الإمبراطور في موقف عداء مع شعبه بسبب هذا الاتحاد.(٤)

يوضح المؤرخ ميخائيل دوكاس رد فعل السلطان العثماني بسفر الإمبراطور البيزنطي للغرب، فكان يخشى من الاتفاق الذي حدث مع الفرنجة، أن يحدث بموجبه مهاجمة الدول الغربية له عن طريق البر والبحر لطرده من الغرب، وقد طالب السلطان العديد والمزيد من الضمانات من الإمبراطور البيزنطي الذي أرسل له السفراء للتعبير عن امتنانه وصداقته المخلصة، وقد أوضح السفراء للسلطان العثماني أن الإمبراطور سافر إلى إيطاليا، ليس

---

(١) Vasiliev,A.,*Histoire De L' Empire Byzantine*,Tom. II, PP.672-673.

(٢) لوكاس نوتاراس Lucas Notaras: القائد العسكري الأعلى Mega Doux للجيش البيزنطي داخل القسطنطينية، أثناء الحصار العثماني تم أسره بعد الفتح، وقربه السلطان محمد الفاتح إليه لكنه قام بقتله مع اثنين من أبنائه فيما بعد. انظر:
Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,PP.291-292.

(٣) نيقولو باربارو: الفتح الإسلامي للقسطنطينية يوميات الحصار العثماني ١٤٥٣، ترجمة حاتم عبد الرحمن الطحاوي، ط ١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٢م ، ص ٥٧.

(٤) Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,P. 181.

حسب الشائعات ولكن بسبب الاختلافات العقائدية في عقيدتهم، مما ترك الارتياح في نفس السلطان العثماني.[١]

دعا البابا يوحين الرابع إلى حملة صليبية ضد الأتراك العثمانيين في عام ١٤٤٠م، وقد استجاب لدعوة البابا كل من ألفونسو الخامس ملك أراغوان ونابولي ، ولاديسلاس الثاني ملك المجر وبولندا، ويوحنا هونيادي، حاكم تراسلفانيا، وانضمت إلى هذه الحملة قوات من مختلف البلدان الأوربية، وسارت هذه الحملة لقتال العثمانيين فيما سميت "بالحملة الطويلة"، وأرسل البابا الكاردينال جوليانو سيزاريني إلى المجر لإعطاء الحملة دافع معنوي[٢]، ويشير المؤرخ العثماني المجهول إلى أن الإمبراطور حنا الثامن زاد من إشعال رغبة البابا عبر إغرائه بملكية الأقاليم والبلاد الإسلامية حتي مدينة بيت المقدس، كما طلب من القوات المسيحية أن تتقدم للسيطرة على البحر الأبيض والأسود ومدينة القدس. [٣]

تحركت الحملة بقيادة يوحنا هونيادي من بودابست عام ١٤٤٢م، واستطاعت أن تحرز نصراً على القوات العثمانية المتقدمة، بجوار مدينة هرمنشتاد Hermanstade بقيادة يزيد باشا، الذي قتل في هذا الهجوم ، واضطرت فلول العثمانيين من الارتداد لما وراء الدانوب، وعندما علم السلطان مراد بهزيمة الجيش ومقتل يزيد باشا، أرسل جيشاً آخر تعداده ثمانين ألف جندي، بقيادة شهاب الدين باشا تقابل بالجيش الصليبي عند بلدة وازاج Iwasag [٤]واستطاع القائد المجري أن ينزل الهزيمة بهذا الجيش، وأسر شهاب الدين باشا مع خمسة آلاف من العثمانيين.[٥]

يذكر المؤرخ العثماني المجهول أن القوات العثمانية بقيادة طرخان بك وقاسم بك قاومت جيش هونيادي ولكنهم فشلا في ذلك، فتحرك السلطان العثماني بنفسه من فيليبولوليس إلي مدينة صوفيا وسأل قاسم بك عن

---

(١) Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,P. 181.

(٢) نيقولا فاتان: صعود العثمانيين، جـ١، ص ١٠٢.

(٣) Anonim.,*Gazavat Sultan Murad b.Mehammed Han,1443-1444*,PP.4-8.

انظر أيضا: زبيدة عطا: بلاد الترك في العصور الوسطى بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت ، ص١٨٣.

(٤) وازاج (واساج) : مدينة تقع في الشمال الغربي من بلجراد، ويطلق عليها الأتراك نوازج. انظر: محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ١٥٧.

(٥) إسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار، جـ١، ط١، المطبعة الأميرية، القاهرة،١٣١٢هـ ، جـ١، ص ٣٥.

أسباب الهزيمة على يد هونيادي، وأجابه القائد العثماني بأن ذلك كان بسبب كثرة جنوده، فوبخه السلطان مراد واتهمهم بأنهم بالغوا في أعداد الحملة ولهذا السبب تمت هزيمتهم، فكان من الطبيعي أن يدعوا السلطان مراد الثاني إلى تجهيز جيش كبير استعدادا لملاقاة هونيادي وجيشه، وكلف قائده قاسم بك بتجهيز هذا الجيش عبر فرض ضريبة على جميع السكان في الروميلي، الفرسان والمشاة والسكان العاديين، بصرف النظر عن وضعهم الاقتصادي والاجتماعي، وكذلك على أصحاب الزعامات والتيمارات [١] والجنود الانكشارية والسباهية.[٢]

كان لإنتصار هونيادي على العثمانيين أثره النفسي الكبير، فقد جددت الآمال لإحياء فكرة الحروب الصليبية من جديد، وطرد العثمانيين من الأراضي الأوروبية، وحشد الحلفاء جيشا كثيفاً قاده يوحنا هونيادي ورافقه الملك لاديسلاس الثاني ملك المجر، ويذكر المؤرخ ميخائيل دوكاس أن جورج برانكوفيتش الذي جرده مراد الثاني من أملاكه قد اشترك بقوة مرتزقة من حوالي خمسة وعشرون الف من الفرسان والرماة، بالإضافة إلى فلاد الأول داركول أمير الأفلاق، وتحركت هذه القوات عام ١٤٤٣م باتجاه الأراضي العثمانية، فعبرت الدانوب عند سمندريا والتفت الجيش العثماني الغربي الذي أعده السلطان العثماني مراد فلم يكن لديه الوقت لاستدعاء القوات الشرقية، وانتصرت عليه أواخر ١٤٤٣م عند مدينة نيش ثم احتلت مدينة صوفيا.[٣]

واصل يوحنا هونيادي تقدمه، فعبر جبال البلقان وهزم العثمانيين عند يالوفاز Yalovaz[٤]، ما بين صوفيا

---

[١] التيمارات: التيمار في الدولة العثمانية، هي قطعة أرض تُمنح لشخص أو جماعة مقابل وظيفة معينة، وتقل واردات التيمار السنوية عن عشرين ألف آقجة. انظر: سهيل صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مراجعة عبد الرازق محمد حسن بركات، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ٢٠٠٠م، ص٧٦.

[٢] Anonim., *Gazavat Sultan Murad b.Mehammed Han*,PP.13-14.

[٣] Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,P.182.

انظر: نيقولا فاتان: صعود العثمانيين، جـ١، ص ٣٥.

صوفيا: عاصمة بلغاريا حاليا، وهي عند البلغار "تريادينزا" Triaditza وتقع على مسافة أربعمائة وثمانين كيلومترا تقريبا شمال غرب إستانبول، وقد استمدت المدينة اسمها من صوفي sophi زوجة الإمبراطور جستنيان. انظر: موستراس: المعجم الجغرافي، ص ٣٣٤.

[٤] يالوفاز Yalovaz: تعني الذهبية وهي تقع في منتصف الطريق بين صوفيا وفيلبيوبوليس وبها جبال وممرات وعدة تمتد من المدينة إلى فيلبيوبوليس. انظر:

Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,P.182.

وفيلبيوليس، وكان من المتوقع أن يتابع هونيادي زحفه حيث إن الطريق أصبح مفتوحاً بعد هذه الانتصارات ولكن فضل هونيادي الانسحاب منزلاً الهزيمة بقوات عثمانية أخرى في يناير ١٤٤٤م. (١)

عاد المقاتلون بقيادة هونيادي إلى بودا Buda (٢) في ٢ فبراير ١٤٤٤م،بعد أن حققوا العديد من الانتصارات على العثمانيين، وقد أثبتوا للعالم المسيحي أن الانتصار على الأتراك لم يعد مستحيلاً، وذهبت المقولة التي كانت تقول : "العثمانيون قوة لا تُقهر"، وكانت حملة هونيادي قد تعرضت للكثير من المخاطر حيث كان العثمانيون يغلقون عليها ممرات العبور بالأحجار، وكانت تصادفهم حوائط ثلجية وشلالات المياه المنحدرة من الجبال في بعض المناطق، وقد أجبرت الضغوط العثمانية المتواصلة ونقص الإمدادات للحملة على التراجع إلى بودا، وقد عانت قوات هونيادي من الجوع والبرد، لكن استقبلها الملك لاديسلاس مع الشعب المجري استقبال الظافرين(٣)،وقام الملك لاديسلاس بالدخول إلى الكاتدرائية لتقديم الشكر للرب على نجاحها. (٤)

أدت هزائم العثمانيين السابقة أمام هونيادي، إلى قيام بعض الحركات المضادة للعثمانيين، ففي ألبانيا نجد خروج إسكندر بك Iskander Beg(٥) عن طاعة السلطان العثماني، فاستغل انشغال السلطان مراد الثاني في الحرب على الجبهة الشمالية، وحاول القيام بحركة انفصالية تستهدف فصل ألبانيا عن الدولة العثمانية، وتمكن

---

(١) Imber,C., *The Crusade of Varna(1443-1444)*,PP.29-30.

(٢) بودا Buda: تقع على الضفة اليمني من نهر الدانوب، وتمثل الجزء الغربي من العاصمة المجرية بودابست تنسب إلي مؤسسها الذي يحمل نفس أسم بودا، ولكن هناك رأي أخر يرجع إنها مشتقة من كلمه بالمجرية تعني الماء نسبة لمرور نهر الدانوب خلالها. انظر: ابتسام محمد العرابي: العلاقات السياسية بين بيزنطة والغرب الأوروبي ١٣٦٣-١٤٥٣م" رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة كفر الشيخ ٢٠١٨م، ص ٩٠.

(٣) عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٠٢؛ جون باتريك كينروس: القرون العثمانية قيام وسقوط الإمبراطورية التركية، ترجمة ناهد إبراهيم دسوقي،دار المعارف، الإسكندرية،٢٠٠٢م ، ص ٩٤.

(٤) Anonim.,*Gazavat Sultan Murad b.Mehammed Han*,P.16.

(٥) إسكندر بك: Iskander Beg (٨٠٨ – ٨٧٢ هـ / ١٤٠٥ – ١٤٦٨ م) بطل المقاومة الألبانية للأتراك في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي تطلق عليه بعض المصادر الغربية اسم Scamder beg كانت لعائلته النفوذ الأكبر في شمال ألبانية، عمل أبوه يوحنا أو إيفان صمام أمان بين البنادقة المتمركزين في سكوتاري والعثمانيين وإن كان يميل لحماية البنادقة في حال حدوث هجوم تركي أرسل ابنه في عمر التاسعة رهينة إلى القصر العثماني، فاستخدم وسيلة ضغط على أبيه أثناء الحرب مع البندقية (١٤٢٣-١٤٣٠م) أعطى ابنه المسلم، أرضا مجاورة لأملاك أبيه وتابعة لها. طلب إسكندر من العثمانيين إعطاءه مدينة أبيه الرئيسية موس Mus (موسيه Mysja) ورفض ذلك وكان هذا سبب خروجه على العثمانيين وارتداده عن الإسلام، وقاد ثورة الإقطاعيين ضد محاولات العثمانيين فرض ضرائب عليهم، فأطلق عليه اسم "الخائن إسكندر" أعطاه البابا صفة محارب صليبي، فصار بطلاً وطنيًا. انظر :موستراس: المعجم الجغرافي، ص ٨٠.

من طرد الحاميات العثمانية من معظم أنحاء البلاد، وانتصر على الجيش العثماني بقيادة علي باشا حول قلعة كروبيا Cropia [١] عام ١٤٤٣م واستولى عليها، وبسط نفوذه على شمال البلاد.[٢]

يشير المؤرخ العثماني بن عاشق باشا إلى هذا التمرد، أن إسكندر بك كان أحد خدم السلطان مراد الثاني في البلاط العثماني وقد منحه السلطان مراد إقليم في ألبانيا تقديرا لجهوده وبسالته في الحروب، غير أن إسكندر بك ثار وأصبح قاطع طريق أمام القوات العثمانية، ويتضح لنا من الوصف السابق نظرة العثمانيين لتمرد القائد الألباني إسكندر بك، كونه ليس قائدا متمردا إنما قاطع طريق يبحث عن زيادة رقعة الإقطاع التي مُنحت له. [٣]

أما في بلاد اليونان فقد استطاع الأمير البيزنطي قسطنطين دراجاش، استعادة السيطرة على منطقة البيلوبونير، وإصلاح أسوار مدينة هيكساميليون التي هدمها مراد الثاني عامي (١٤٢٣-١٤٣١م) واتصل بأعداء السلطان العثماني من اللاتين، وهاجم أثينا عام ١٤٤٣م وأجبر حاكمها الذي كان يدفع الجزية للعثمانيين، على الاعتراف بسيادته.[٤]

أدت الظروف السابقة إلى جنوح السلطان مراد للسلم مع معارضيه، وذلك عن طريق وساطة ملك الصرب جورج برانكوفيتش، فيذكر المؤرخ ميخائيل دوكاس أن السلطان أرسل سفارة إلى جورج برانكوفيتش وتم المعاهدة في أدريانوبل في يوليو سنة ١٤٤٤م، وعقد صلح لمدة عشر سنوات وكانت شروطه، تستعيد صربيا جميع أراضيها بما في ذلك سمندريا [٥]، يتنازل مراد الثاني عن سيادته على بلاد الأفلاق التي تصبح مستقلة، يوقف

---

[١] كروبيا Croia: (بالتركية أقجه حصار) هي مدينة تركية في ألبانيا العليا، في ولاية روم إيلي. بنيت على إرتفاع ٣٦٠ قدم فوق البحر، تطل على وادي كامبسي Kampsi، وهي قلعة صخرية قديمة وحصينة، بها حوالي ٦٠٠٠ نسمة، على خط عرض ٣٠ و٤١ وطول ١٩,٤٨ شمال تيران كانت معقل إسكندر بك. انظر: موستراس: المعجم الجغرافي، ص ٨٠.

[٢] محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ط١، دارالنفائس، القاهرة، ١٩٩٦م. ، ص ١٥٩.

[٣] Asikpasaoglu., *"AsikpasaogluTarihi"*,P.119

وقد ذكر بن عاشق باشا أن السلطان مراد الثاني أمر قائده عيسى بك بالتقدم للقضاء على تمرد إسكندر بك قائلا "....وسيعينك الله علي ذلك". انظر: Asikpasaoglu., *"Asikpasaoglu Tarihi"*,P.119.

[٤] Ostrogaskey, G., *History of the Byzantine state*, P. 502.

انظر أيضا: زبيدة عطا: بلاد الترك في العصور الوسطي، ص١٨٤.

[٥] سمندريا: تقع على مسافة أربعة وأربعين كيلو مترا جنوب شرق بلجراد. انظر: شمس الدين سامي: قاموس الإعلام، مج٤، إستانبول،١٨٨٩م، ص٢٦-٢٩.

العثمانيون حملاتهم العسكرية شمالي نهر الدانوب، وكذلك دفع ألف فلورين للملك المجري لاديسلاس من قبل السلطان مراد الثاني،الذي يتوجب عليه أيضا تقديم ٢٥ ألف جندي لمساعدة الملك لاديسلاس في حملاته العسكرية، وقد ذهب السفراء إلى المجر وذلك للحصول على تصديق الملك لاديسلاس على المعاهدة.(١)

استغل أمير كرمان انشغال مراد في النزاع مع صربيا والمجر، واستطاع أن يستعيد مدنه التي استولى عليها مراد سابقاً، وبعد عقد مراد الصلح مع المجريين والصرب استعد للتصدي لأمير كرمان، فحشد قواته الشرقية، كما أرسل تعليمات إلى ابنه علاء الدين لجمع جيش من أماسيا والذهاب إلى إكونيون، ووصل جيش مراد إلى أكونيون وقام بتدميرها من دون رحمة، وحمل الكثير من الذهب والفضة، وهرب أمير كرمان مع جيشه إلى معاقل الجبال، وبعد إنتهاء الصيف قرر مراد مغادرة إمارة كرمان، وعاد ابنه إلى أماسيا، وذهب مراد إلى بورصة وعبر المضيق إلى تراقيا، وكان أمير كرمان حراً في العودة إلى أرضه(٢)، يذكر المؤرخ العثماني المجهول أن الإمبراطور مانويل كان قد أرسل سفيره لمحمد بن كرمان يحثه على مهاجمة أراضي العثمانيين ومحاولة الاستيلاء على مدينة بورصة قائلا "لأننا سوف نغلق عليه البحر، ولن نجعله يتمكن من المرور فيه". (٣)

ويوضح لنا ميخائيل دوكاس أنه مع بداية فصل الشتاء وصلت الأنباء لسلطان مراد الثاني من أماسيا معلنة وفاة ابنه الأمير علاء الدين الذي كان في الثامنة عشر من عمره، وكان وسيم وشجاع، وقد حزن السلطان حزناً

---

(١) Doukas,M.,Decline and Fall of Byzantium to the OttomanTurks,P.183;Anonim.,Gazavat Sultan Murad b.Mehammed Han, P.35; CF.also:Ostrogaskey,G., History of the Byzantine State,P.501.

عقدت هذه المعاهدة في سزجدين في يوليو ١٤٤٤م بين يوحنا هونيادي والسلطان العثماني مراد نصت على أن يعيد الإفلاق إلى دراكول على أن تكون هذه تحت سيادة المجر وعقد هدنة لمدة عشر سنوات. وأقسم على المعاهدة الملك لاديسلاس ملك المجر بالإنجيل والسلطان مراد بالقرآن، وافتدي زوج ابنته (محمود شلبي) الذي كان قائدا عاما الجيوش العثمانية بمبلغ ٦٠ألف دوقية وقد حررت هذه المعاهدة باللغتين العثمانية والمجرية. انظر: سالم الرشيدي: محمد الفاتح، ط٢، دار البشير للثقافة، القاهرة، ٢٠١٣م،ص٣٤.

(٢) Doukas,M.,Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks,PP. 183 – 184.

(٣) Anonim.,Gazavat Sultan Murad b.Mehammed Han,P.34.

شديداً لأنه كان يعده للعرش، فاستدعى مراد جميع مسئوليه وقادته وعين ابنه الثاني محمد [١]، كحاكم وقائداً على جميع رعاياه، ثم عبر مراد إلى الشرق وأقام في مدينة بورصة كمواطن عادي [٢] يخبرنا بن عاشق باشا أنه بمجرد وصول الأخبار لإبراهيم بن كرمان بجلوس السلطان محمد على العرش في أدريانوبل، ابتهج كثيرا بهذه الأخبار التي تعني زوال خطر السلطان مراد عنه، ولم يكتفِ بذلك بل أرسل سفيرا إلى الملك لاديسلاس يحثه على إعادة غزو الأقاليم التابعة للعثمانيين، وحسب نص كلماته" ماذا تنتظر؟ لقد جن بن عثمان، أعطي عرشه لغلام صغير، وذهب ليلقي بنفسه في أحضان النساء، وترك الدولة، والآن هذه هي فرصتنا جميعاً، يجب علينا التحرك بسرعة".[٣]

وتعليقًا على تنازل السلطان مراد عن العرش، فالغالب في تفسير المؤرخين أن تنازله عن العرش لأنه أحس بالتعب، وربما كانت المشاكل والصراعات الداخلية والخارجية وموت ابنه علاء الدين الذي كان يعده لخلافته، حيث ترك هذا الحدث الحزن في نفس السلطان، فرأى أنه يعتزل السياسة، ويتنازل عن العرش لابنه محمد البالغ من العمر أربعة عشر عاماً، فكان الوضع السياسي في أدريانوبل مضطرباً، فنجد أنه حدث معارضة من الصدر الأعظم خليل باشا الذي كان يثق به السلطان، ومعارضة من وزراء آخرين أكثر ميلاً إلى محمد

---

(١) السلطان محمد الثاني بن مراد الثاني: سابع سلاطين آل عثمان، تولي الحكم وعمره ٢٢سنة، حكم ثلاثين عاما(١٤٥١-١٤٨١م)، اشتهر بالفاتح لأنه فتح القسطنطينية، وهو أعظم السلاطين العثمانيين من حيث الفتوحات التي تمت في عهده في أوروبا الشرقية واليونان وشية جزيرة القرم، ومن حيث تأسيس وترسيخ دعائم الحضارة العثمانية كان عالما شاعرا، بجانب كونه قائدا عسكريا طموحا، وكان يجيد عدة لغات شرقية وأوربية وله ديوان شعر بالتركية مطبوع، وهو يُعد أحد الفاتحين العالمين الثلاثة الإسكندر الأكبر قبله ونابليون بعده ، مات في معسكره وهو خارج لإحدى الحملات الكبرى. انظر: برنارد لويس: أستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية، تعريب سيد رضوان علي، ط٢، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الرياض ١٩٨٣م، ص١٧هامش (٤).

(٢) Doukas,M.,Dec*line and Fall of Byzantium to the OttomanTurks*,P.184; Asikpasaoglu., *"Asikpasaoglu Tarihi"*,P.127.

انظر أيضا: يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٢٤.

وتذكر المصادر الأسباب التي دعت مراد للتنحي عن العرش لابنه محمد وتحصرها في حالة الإخفاق التي تعرض لها السلطان مراد في مواجهاته البلقانية، بالإضافة إلى حالة الانكسار وشعوره بالحزن العميق على وفاة ابنه الأكبر علاء الدين، الخلافات التي وقعت بينه وبين أمراء الحدود، الرغبة في إظهار ابنه محمد كسلطان قادم لمواجهه أيه محاولات تقوم بها بيزنطة لتأييد أي مدعي للسلطة التي كانت تحتجزهم لديها، وقد اختلفت المصادر حول تاريخ تنحي مراد ١٤٤٤م، فقد تباينت فيما كان تنحي مراد مرة واحدة أو مرتين عن السلطة. انظر: سيد أحمد محمود: تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، ط١، مكتبة الأداب، القاهرة،٢٠٠٧م ، ص ١٥٧-١٥٨ هامش (٤).

(٣) Asikpasaoglu.,"Asikpasaoglu Tarihi",P.118.

الثاني.[١]

قرر حنا الثامن ومعه البابا ، استغلال فرصة صغر سن السلطان الجديد، واطمئنان والده وعزلته وتركه الدنيا وراء ظهره، وانتقال معظم جيشه إلى الأناضول، وقاما بتشجيع تشجيع المجر على شن الحرب ضد الدولة العثمانية، فقد أبلغ المندوب البابوي وهو الكاردنيال سيزاريني الملك لاديسلاس، ملك المجر وبولونيا أنه في حل من القسم الذي تعهد به مع العثمانيين؛ لأنه قسم جرى مع المسلمين وأنه لا قيمة له، وأن المصلحة النصرانية العليا هي التي يجب أن توضع فوق أي اعتبارات أخرى، وقد شارك البيزنطيون في إطلاق سراح أورخان حفيد بايزيد الأول، وقد أملوا في طرد العثمانيين من أوروبا واستعادة أملاكهم السابقة.[٢]

ما لبث وان قام الكاردنيال فرنسيسكو جولدميريFrancesce GenIdmieri قائد الأسطول البابوي، بالكتابة للملك لاديسلاس يحثه ويحرضوه على نقض العهد وانتهاز الفرصة للقضاء على العثمانيين في أوروبا.[٣] واقتنعت القيادات الأوروبية المعسكرة في البلقان، بتفسير الكاردينال ، ووافق كلاً من ملك إنجلترا، فرنسا، البندقية، جنوة، فلورنسا على الرغم من وجود نزاعات بينهم، المساهمة في هذه الحرب الصليبية، ويبدو أن بعض زعامات البلقان رفضت المشاركة في هذا التحالف مثل جورج برانكوفيتش ويوحنا هونيادي على الرغم من قيادته للجيش في هذه المعركة، وقد منع الأمير الألباني إسكندر بك من اللحاق بحلفائه المجريين.[٤]

ويوضح لنا ميخائيل دوكاس أنه في أوائل الربيع، وصل الجواسيس من المجر للإبلاغ الحاكم الجديد محمد الثاني ومستشاريه بأن العديد من المجريين والقوات الأوروبية يتجمعون على ضفاف نهر الدانوب، فأخبر محمد والده بهذه التطورات، والذي دهش من انتهاك العهد، وعند اقتراب الصيف، أمر القوات العسكرية في الشرق بالانضمام إليه، ويذكر بن عاشق باشا أن خطة الجيش الأوروبي العسكرية هي أن يبحر الأسطول البندقي

---

[١] محمد سهيل طقوش: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ص ٩٦.

[٢] محمد سالم الرشيدي: محمد الفاتح، ط٢، دار البشير للثقافة، القاهرة،٢٠١٣م، ص ٣٥.

[٣] محمد سالم الرشيدي: محمد الفاتح، ص ٣٦.

[٤] Shaw,S.,*History of the Othoman Empire*,Vol.I,P.52.

انظر أيضا نيقولا فاتان: صعود العثمانيين، ص ١٠٥.

المكون من خمسة وعشرون مركباً ثلاثياً، من بحر إيجة باتجاه المضايق ويستولي على غاليبولي [١]، ويقوم بمنع مرور السلطان مراد، في الوقت الذي يزحف فيه الجيش البري جنوباً، ويؤمن اتصالا مع هذا الأسطول وبذلك تكون هذه القوات الصليبية قد حققت هدفين في الوقت نفسه وهما عزل السلطان عن قواعده في آسيا الصغرى وفتح طريق إلى القسطنطينية.[٢]

عبر الجيش الصليبي الدانوب يقوده الملك لاديسلاس ظاهرياً ويقوده يوحنا هونيادي فعليًا متوجهين إلى فارنا [٣]، وذلك بعد أن استولوا على القلاع، وكان مراد محبطًا بسبب إغلاق الأسطول البندقي للدردنيل في وجه فلم يستطع العبور إلى أوروبا عن طريق غاليبولي، وكانت القوات العثمانية بقيادة محمد الثاني خائفة من التحرك صوب القوات الصليبية، وكان السلطان مراد قد تمكن من اكتشاف ممر خالي من المراكب الثلاثية واستطاع عبور المضيق وانضم إلى قوات ابنه التي كانت في انتظاره وهو ما ذكره المؤرخ ميخائيل دوكاس [٤]

قام السلطان مراد الثاني بتقسيم القوات العثمانية في طريقه لملاقاة الجيش الصليبي في فارنا على أن يكون قاراجا بك أمير أمراء الأناضول وعيسى بك في ميمنة الجيش، وقاسم بك قائد جيش الروميلي في الميسرة، على أن يظل حسن بك وداود بك مع السلطان في الوسط، وظل السلطان طوال الطريق في إعطاء نصائح لقادته وقواته بالاستعداد للقتال ومن أجل أن ينال النصر أو الشهادة، ويشير المؤرخ المجهول الذي عاصر معركة فارنا أن الجنود الإنكشارية أجابوا السلطان مراد بأنهم "طوع أمره لنصره دين الله". [٥]

يذكر ميخائيل دوكاس أنه التقى الجيشان في فارنا ١٤٤٤م، وحدثت معركة مخيفة من الصباح الباكر وقام المسيحيون بقتل الأتراك بلا رحمة، وفي الساعة العاشرة تقريباً، قام ملك المجر لاديسلاس الثاني برفقة خمسمائة

---

(١) Asikpasaoglu., *"Asikpasaoglu Tarihi"*,P.138.

(٢) Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,P.184.

(٣) فارنا Varna: أو وارنة سميت قديماً أوديسوس odyssus، وهي مدينة وميناء بلغاري مهم علي البحر الأسود كانت مركز ولواء وارنة التابع لولاية سلسترة، وتعد الآن ثالث أكبر المدن البلغارية وهزم فيها الأتراك كلا من المجر وبولندا ١٤٤٤م في عهد مراد الثاني. انظر: موستراس: المعجم الجغرافي، ص٤٨٥.

(٤) Doukas, M., *Decline and Fall of Byzantium to the Othoman Turks*, P. 184.

(٥) Anonim.,*Gazavat Sultan Murad b.Mehammed Han*,P.57.

جندي، بتحويل سلاح الفرسان نحو العدو، وحاول يوحنا هونيادي أن يمنعه ولكنه لم يستطيع، ومع اقتراب الملك لاديسلاس من العدو لقى حصانه ضربة مميتة، وقام العثمانيين بقطع رأسه على الفور، وأدى ذلك إلى اضطراب الجيش الصليبي، وشاعت الفوضى في صفوفه، وفر يوحنا هونيادي عبر الدانوب، وقتل الكاردينال سيزاريني، وتم النصر للعثمانيين، وعادت بلاد البلقان مرة أخرى للحكم العثماني.(١)

كانت معركة فارنا علامة بارزة في تاريخ كلاً من العثمانيين وأوروبا، فقد حطمت أخر أمل للأوروبيين في إخراج العثمانيين من أوروبا، كما أنها كانت الأمل الأخير في إنقاذ الإمبراطورية البيزنطية من السقوط، فهذه المعركة قد أنهت على الجيوش الصليبية التي قتل فيها الأمل وملأها اليأس، فلم تعد المجر محط أنظار العالم فقد قتل ملكها لاديسلاس الثاني ملك المجر وبولونيا في المعركة بدون وريث، فانفصلت بولونيا عن المجر وحرصت دائماً على عدم الظهور أمام العثمانيين كدولة واحدة، بعد أن كانتا بالفعل دولة واحدة تمتد من البلطيق إلى الأدرياتيكي إلى البحر الأسود، ومن هنا تعتبر فارنا من أهم وقائع التاريخ الأوروبي.(٢)

ويوضح لنا المؤرخ ميخائيل دوكاس أن السلطان مراد الثاني قد عبر المضايق منتصراً، بعد أن حمل جيشه عدد ما لا يحصى من الغنائم وقرر الإقامة مرة أخرى في ماغنيسيا، وعين محمد حاكم للمرة الثانية.(٣) ويعلق المؤرخ ابن عاشق باشا على انتصار السلطان مراد أنه عاد منتصرا إلى العاصمة العثمانية أدريانوبل، وكان في استقباله ابنه محمد وبعد ذلك أرسل السلطان مراد بشارة النصر في فارنا إلى سلطان الدولة المملوكية في مصر والشام، كما أرسل مع تلك البشارة العديد من الأسري بملابسهم الحربية، وصلت السفارة العثمانية إلى

---

(١) Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,PP.184-185.

ويذكر بن عاشق باشا أنه تم إلقاء رأس الملك لاديسلاس تحت أقدام جواد السلطان العثماني مراد الثاني قائلا".... لتتدحرج رؤوس أعدائك تحت أقدام جوادك دائما يامولاي".انظر: Asikpasaoglu.,*"Asikpasaoglu Tarihi"*,P.128.

(٢) يلماز أوزتونا: موسوعة تاريخ الإمبراطورية السياسي والعسكري والحضاري، ترجمة عدنان محمود سليمان، مج١، ط١، الدار العربية للموسوعات، بيروت،٢٠١٠م، جـ ١، ص ١٢٧؛ وللمزيد من التفاصيل عن معركة فارنا انظر: سارة العزب حسين عيسى: العثمانيون والحملات الصليبية المتأخرة في شرق أوروبا ١٣٨٩-١٤٤٤م، دار عابد للنشر، القاهرة،٢٠٢٢م.

(٣) Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,P.185.

القاهرة حيث أمر السلطان جمقمق [١] بتلاوة اسم السلطان مراد الثاني بعد اسم الخليفة العباسي والدعاء لأرواح الشهداء العثمانيين، وأقيمت الاحتفالات بالنصر في القاهرة [٢] .

كان يوحنا هونيادي الوصي على عرش المجر، بعد وفاة الملك لاديسلاس في معركة فارنا، قد أغار على البلاد الصرب انتقاماً من العثمانيين بعد هزيمته في معركة فارنا، فقام هونيادي بعبور الدانوب ووصل إلى سهل كوسوفو، وكان على اتفاق مع أمير الأفلاق وإسكندر بك في ألبانيا، وكان يأمل أن يتوغل في بلاد الصرب بمساعدة الصربيين ولكن رفض جورج برانكوفيتش المساعدة، وظل على تعاونه مع العثمانيين، وحذر مراد الثاني من قيام تحالف مجري، أفلاقي، ألباني ضده، فارتد مراد إلى صوفيا وجهز جيشاً قوياً تقدم به باتجاه كوسوفو، وكانت خطة هونيادي التوغل في عمق الأراضي العثمانية لتأمين الاتصال مع حليفه إسكندر بك للحصول على مساعدته، أو ربما لقطع ممتلكات الدولة العثمانية في أوروبا إلى شطرين، ولكنه فوجئ بالقوات العثمانية في سهل كوسوفو، وكان السلطان العثماني قد حشد حوالي مائة ألف جندي على رأسهم أمراء الأناضول عيسي بك وقاراجا بك ووزرائه كما أخذ معه جنودا من إمارة بن كرمان، حتي لا يترك لأميرها مجالا لخداعة في الأناضول[٣]، وبدأت المعركة بين الطرفين مع حلول المساء، ومع الساعات المظلمة من الفجر المبكر، غادر هونيادي مع عدد قليل من الجنود للتخطيط لهجوم مبكر، وكانت القوات العثمانية تتفوق على القوات المجرية، ومع شروق الشمس أعمل مراد السيف فيهم فأصبح الجيش المجري في حالة رهبة واضطراب، وأخذوا يسارعون إلى الهروب، فمنهم من هرب ومنهم من ذُبح على يد العثمانيين واستطاع مراد أن يحقق انتصاراً كبيراً على هونيادي وهو ما وضحه المؤرخ ميخائيل دوكاس [٤]

---

[١] الظاهر سيف الدين جمقمق (١٣٧٣ – ١٤٥٣م) أو جمقمق العلائي الظاهري سيف الدين أبو سعيد، هو سلطان من المماليك البرجية، تولى حكم مصر في الفترة من ٨٤٢ هـ إلى ٨٥٧ هـ (١٤٣٨ – ١٤٥٣م)، وهو الرابع والثلاثون من ملوك الترك، والعاشر من ملوك الشراكسة، وهو شركسي الأصل، اشتراه الأشرف سيف الدين إينال العلائي وقدمه إلى الملك الظاهر برقوق، فأعتقه واستخدمه، عاش نيفا و ٨٠ سنة. انظر: القرماني: أخبار الدول، مج٣، ص٤٣.

[٢] Asikpasaoglu., *"Asikpasaoglu Tarihi"*,P.129.

[٣] Asikpasaoglu., "Asikpasaoglu Tarihi",P.130.

[٤] Doukas,M., *Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,P.185.

لـدينا شـاهد عيـان عثمـاني وهـو المـؤرخ بـن عاشـق باشـا الـذي ذكـر أنـه شـارك بنفسـه فـي معركـة كوسوفو(قوصوة) الثانية، وأشار أن بداية تلك المعركة كانت في صباح الجمعة ١٧أكتوبر (٨٥٢هـ -١٤٤٨م)، حيث رأى السلطان مراد الثاني الأعداد الكثيرة للجيش الصليبي فنزل عن جواده، وصلي ركعتين قضاء حاجة، ثم مسح وجهه بالتراب، وتضرع إلى الله قائلا "يا ربى انصر هذه الحفنة من أمة محمد ، انصرهم بحرمة محمد صلى الله عليه وسلم، فإن ذنوبي كثيرة، قد تهلك هؤلاء المسلمين على يد الكفار بذنوبي". (١)

من جانب أخر نري أسرع الإمبراطور حنا الثامن في كسب ود السلطان العثماني حيث أرسل رسالة إلى السلطان مراد الثاني يهنئه بانتصاره في فارنا متمنياً له أطيب التمنيات، بينما كان قسطنطين الحادي عشر حاكم جنوب اليونان قد أعد حملة لينتقم لهزيمة فارنا ومد نفوذه وسيطرته إلى عدة مناطق و كانت اليونان قد نهضت من جديد، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً، ففي سنة ١٤٤٦م قد اجتاح السلطان مراد بلاد اليونان، وكان قد أرسل سفير إلى القسطنطينية للمطالبة باستسلام المدن ولكنهم رفضوا الامتثال له، وكان قسطنطين، كما ذكر المؤرخ ميخائيل دوكاس قد انتقل إلى هيكساميليون الذي كان قد استعادها قبل أربع سنوات وحفر الخنادق حولها، ثم لجأ هو وستون ألف شخص وراء جدرانها، ولكنه تعرض هو وأخوه توماس لخيانة الألبان، على الرغم من تحذيره من خيانتهم، وفروا واستطاع مراد تدمير كل شيء، وأسر أكثر من ستين ألف شخص، وتعهد الحكام البيزنطيين بدفع جزية كبيرة مقابل شروط الصلح.(٢)، وما لبث وأن توفى الإمبراطور حنا الثامن ، ولم يكن لديه أي أطفال من زوجاته الثلاثة ليتولى أخوه قسطنطين الحادي عشر بعد أن استدعاه المسئولون إلى القسطنطينية وذلك في عام ١٤٤٨م (٣)

وفي محاولة لتقييم ما سرده المؤرخ ميخائيل دوكاس عن العلاقات البيزنطية العثمانية زمن الإمبراطور حنا

تـذكر جميـع المصـادر التاريخيـة المعاصـرة أن يوحنـا هونيـادي بعـد أن أدرك هزيمتـه بعـد ثلاثـة أيـام مـن القتـال فـي معركـة كوسوفو(قوصوة)الثانية هرب من ميدان المعركة متذرعا بأنه سوف يقوم محاولة الإلتفاف حول القوات العثمانية، غير أنه فشل في ذلك، مما دفعه للهرب. انظر: Asikpasaoglu.,"*Asikpasaoglu Tarihi*",P.132.

(١) Asikpasaoglu.,"Asikpasaoglu Tarihi",P.131.

(٢) Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,P.185-186; CF.also: Hearsy,J., *City of Constantines 324-1453,Dufour Philadelphia,1966*,P. 230.

(٣) Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*,P.188.No.199-123-125.

الثامن ، يمكن القول أن الإمبراطور ركز طوال فترة حكمه على تحقيق الاتحاد الكنسي ، معتقدا انه الحل الأمثل لمواجهة الهجوم العثماني النهائي والمتوقع على القسطنطينية ، خاصة بعد ضياع جزء كبير من الإمبراطورية البيزنطية وسقوط العديد من المدن مثل مودون وسالونيك في بداية عهده، ولم يكن بوسعه التصدي للهجمات العثمانيين فلجأ إلى الغرب الأوروبي وسافر إلى إيطاليا وقابل البابا هناك من أجل الحصول على مساعدات لرفع الخطر عن القسطنطينية، وقد أسفر عن ذلك عقد مجمع ديني في فيرارا Frarara عام ١٤٣٨م ثم انتقل المجمع إلى مدينة فلورنسا Florence بعد أن اجتاح الطاعون في فيرارا وكان مجمع فلورنسا قد عُقد عام ١٤٣٩م حيث وعد البابا يوجين الرابع بمساعدة القسطنطينية ودعوة ملوك الغرب للقيام بحملة صليبية ضد الأتراك العثمانيين، ونجد استجابة ملوك أوروبا لنداء البابا، وتمثل في كل من ألفونسو الخامس Alphonso v (١٤١٦– ١٤٥٨م) ملك أرجون أقوى شخصية في حوض البحر المتوسط، ولاديسلاس الثالث Ladislas III ملك المجر وبولندا ١٤٣٤–١٤٤٤م، ويوحنا هونيادي Hunydai حاكم ترانسلفانيا، وقاد هؤلاء حملة صليبية لقتال الأتراك العثمانيين وانتهى الأمر بهزيمة الأتراك بالقرب من مدينة نيش عام ١٤٤٣م وعقد معاهدة لمدة عشر سنوات.

ولكن نجد أن الهدنة قد خرقت من قبل الجانب الأوروبي بإيعاز من البابا يوجين الرابع من خلال مندوبة الذي أقنع الملك لاديسلاس أن يحل عهده مع العثمانيين لأنهم يعتبرهم كفرة وبالفعل استجاب له وتقدم يوحنا هونيادي بالجيش الأوروبي الصليبي نحو فارنا وأنزل بالصليبيين هزيمة قاسية عام ١٤٤٤م، وعلى أثرها توفى الملك لاديسلاس ملك المجر والمندوب البابوي وفر الملك يوحنا هونيادي، وفي عام ١٤٤٧م نجح السلطان مراد في هزيمة قسطنطين باليولوجوس حاكم المورة الذي دخل في طاعة السلطان كما وضح المؤرخ ميخائيل دوكاس،وفي عام ١٤٤٨م دعا البابا نيقولا الخامس ١٤٤٧–١٤٥٥م إلى حملة صليبية كان معظمها من أفراد المجر وبولونيا تحت قيادة يوحنا هونيادي، ولكن استطاع مراد أن ينتصر على هذه الحملة عند كوسوفو الثانية في نفس العام، ليموت الإمبراطور حنا الثامن بعد هذه المعركة بأسبوعين دون وريث شرعي له ولم يحقق له الاتحاد الكنسي شيئاً سوى غضب الشعب البيزنطي منه حسب رواية المؤرخ ميخائيل دوكاس.

وفي محاولة لتقييم ميخائيل دوكاس كمؤرخ لتلك الأحداث السابق ذكرها، يُعد ما دونه دوكاس مؤلفا جديرا بالدراسة والتحليل ؛ لأنه مؤرخ معاصر تلك الفترة وشاهد عيان على معظم الأحداث، ويرى بعض المؤرخين أن المساحة الواسعة التي أعطاها للعثمانيين في كتابه أساءت كثيرا لهذا الكتاب، والجدير بالذكر أنه كان من الملاحظ أن دوكاس تميز بالنزعة الدينية وقد نسب انتصارات العثمانيين إلى ذنوب المسيحيين وأن مدينة القسطنطينية ضاعت بسبب غضب الرب، وقد أعتمد المؤرخ ميخائيل دوكاس أسلوبا معروفا في الكتابات التاريخية في فترة العصور الوسطى ،وهو أسلوب المشابهة بين الأحداث التاريخية التي تجري للبيزنطيين وتلك الأحداث التي جرت لليهود والتي ذكرت في العهد القديم، فنجد دوكاس يحاول إيجاد مشابهة تاريخية بين السلطان محمد الفاتح وبين الملك نبوخذ نصر وما بين القسطنطينية وبيت المقدس.[١]

ومن الأمور التي كان لها تأثير هام في كتاباته أنه عرف عنه أنه كان من أنصار وحدة الكنائس الشرقية والغربية، فكان يرى في ذلك الطريق الوحيد لتخليص القسطنطينية من مصيرها المحتوم، ويلاحظ أن دوكاس حاول أن يظهر أنه رجلٌ ذو مشاعر ويحافظ على مشاعر وأحاسيس البيزنطيين في كتاباته، وذلك لأنه اعتذر لهم في كتابه عن مواصلة روايته بعد سقوط القسطنطينية فكتب يقول " أكتب الآن بعد سقوط المدينة .....أنه ليس من المفترض أن أسجل الانتصارات ومأثر المستبد الطاغية الكافر ..... لقد تعلمت وأنا في مرحلة الشباب من كبار السن الموقرين أن نهاية الاستبداد العثماني سوف ينتهي بانقراض سلالة باليولوجوس Paleologos وبناء على تلك النبوءة فإن نهاية الأباطرة والمدينة لابد أن تحدث أولا يتلوها تدهور الحكم العثماني".[٢]

[١] جونز: الفتح العثماني للقسطنطينية، ص٢٣٤-٢٩٣.

[٢] Doukas,M.,*Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks,*P.244.